أمنيـــة تحققت ...!

للأســـتاذ محمد سعيد العريان

كانت « سمية » جالسة إلى مكتبها فى الغرفة العليا من إدارة « شركة المبيعات الوطنية » وبين يديها الآلة الكاتبة تنقر عليها بأصابعها وهى تترنح وتهتز فى مرح ونشوة كأنما توقع لحناً موسيقياً تناجى به أمنية عزيزة من أمنيات الشباب ، وكان على شفتيها ابتسامةٌ راضية كأنها من الأمل الذى تأمله على ميعاد ؛ وإنها لجالسة مجلسَها ذلك منذ ساعات لم ترفع رأسها ولم تبرح مقعدها ، ولـكن فى وجنتيها حمرة ناضرة كأنما هى عائدة لساعتها من مجلس قصْف وشراب ؛ وكان فى السماء برق ورعد ومطر ، ولـكن فى قلبها هدوء الثقة وروح الاطمئنان

وفرغت « سمية » من نقش الرسالة التى بين يديها ، فكفَّت أصابعها عن الحركة وراحت تخلِّص الورقة من بين أضراس الآلة الـكاتبة وهى تغنى فى صوت هامس أغنية من أغنيات الهوى والشباب . ثم نظرت فى ساعتها وهمّت أن تنهض لميعاد الغداء ؛ ودق الجرس ، وهبَّتْ سمية واقفة لتردّ تحية المدير الشاب ، ثم استأذنتْ ومضتْ معجلة إلى مثواها حيث تتوقع أن يكون أخوها فى انتظارها لموعده على الغداء . . .

* * *

لقد كانت سمية سعيدةً بحياتها على ما فيها من نَصَب وجهد ورزق محدود ؛ إذ كان لها نفسٌ راضيةٌ قنوع ، لا تتطلع إلى ما لا تملك ، ولا تعرف من أيامها غير اليوم الذى تعيش فيه ؛ فلا هى تذكر ماضياً تأسَى عليه ، ولا غداً تتشوّف إليه ؛ فوجدتْ سعادة الرِّضا حين فقدتْ سعادةَ المال ورفاهة الغنى ، وتعوّضت من شىء بشىء

على أنها لم تكن كذلك فى ماضيها ؛ فقد كان أبوها رجلاً من رجال المال ، وكان له جاه وصيت وشفاعة ، ولـكنها لم تدركه حين أدركتْه إلا شيخاً حُطَمة قد لبسه الدهر فأخلَقه وذهب بماله وجاهه ، فلم يترك لها حين آن أوانه إلا حطاماً من الذكريات ، وخلَّفها وأخاها وحيدين فقيرين تتدافع بهما أمواجُ الحياة من شاطئٍ إلى شاطئٍ غثاء من غثاء البحر أو زَبَداً طافياً على الماء !

على أن من كرم الله على سمية أنها لم تفتح عينيها للحياة إلا على نور ذبالة توشك أن تنطفئ ؛ وبأكرها اليُتم والفقر قبل أن تذوق سعادة الاجتماع ورفاهة الغنى ؛ فلم تشعر بمرارة لما صارت إليه ، إذ كانتْ لم تشعر قبلُ بما كانتْ فيه ؛ وتناولتْ الحياة كما عرضت لها ...

وراحت سمية وأخوها يسعيان لرزقهما فى رضاً واطمئنان ، كما يسعى كل ساعٍ إلى رزقه فى غير تبرُّم ولا سخط ؛ ووجد أخوها عملاً فى مصرف من مصارف المال يضمن له الـكفاف ؛ واستخدمتها شركة المبيعات الوطنية كاتبة حاسبة لقاء أجرٍ معلومٍ يقوم بحاجتها ويَفضل ؛ وزادها شعورها بأنها كاسبة مأجورة ـ وإنها لفتاة ـ زهواً وسعادة واعتداداً بنفسها . ولم يكن هيناً أن تجد فتاة مثل سمية عملاً فى مثل الشركة التى استخدمتها ؛ لولا أنها ابنة أبيها وأنه كان ، وكانت له على شركة المبيعات الوطنية أيادٍ تقتضيها الوفاء ، فاستخدمت سمية عطفاً عليها وعرفاناً بأيادى أبيها ، ولـكنها لم تكن تدرى ، وكان أكثر من تعرف عطفاً عليها وتشجيعاً لها المدير الشاب « شفيق »

* * *

... إن غداً يوم العيد ؛ هذه أسراب الفتيات يزحمن الطريق ويملأن السيارات العامة ومراكب الترام ، رائحات غاديات من متجر إلى متجر ينتقين ثياب العيد ؛ وهذه أفواج الشباب يخطرون فى مرح ونشوة على أرصفة الشوارع وعلى أبواب المتاجر يتأهبون لاستقبال العيد ؛ وهؤلاء آباء وأمهات ، وصبيان وبنات ، فى عيونهم نظرات البشر ، وعلى قسماتهم آيات المسرة ؛ وسميةُ بين هؤلاء وأولئك لا تلقى بالاً إلى أحد منهم ، مُسرعةً تَجْلى إلى مثواها حيث تتوقع أن تلقى أخاها فى انتظارها لموعده على الغداء . . .

لقد أوشك شهر أن ينتهى ولم تجلس معه مرة واحدة إلى المائدة ، فإن مواقيتهما لمختلفة ، وإن عملها فى المكتب ليقتضيها أن ترابط هناك كل ليلة إلى المساء ؛ فلا تلقى أخاها إلا رائحاً إلى فراشه ، أو غادياً على عمله فى الصباح وهو مجلان ؛ ولـكن غداً يوم العيد ؛ فما أحرى أن تفرغ له قليلاً ويفرغ لها وأن تعدّ له المائدة التى يشتهيها ، وأن يجلس إليها ساعة ونجلس إليه !

وهيأت سمية المائدة وجلست تنتظر ، وأذنها إلى كل خفقة نعل على سُلَّم الدار تترقب مطلعه ... وسرَّحتْ عينيها على المائدة بين ألوان الطعام فاستشعرت الرضا ؛ إنها لمائدةٌ حافلة ؛ ولكن أين أخوها ؟ إنه لم يحضر بعدُ وقد مضى على موعده ساعة ... وسمعتْ طرقاً على الباب فخفَّتْ إليه ؛ وكان الطارق ساعي المصرف يُؤْذنها أن أخاها لن يحضر لموعده ، لأن عمله هناك يشغله اليوم عن مشاركتها في مائدة العيد !

وأغلقت سمية الباب ودخلت الدار وحيدة ؛ ووقفت في الشرفة برهة تنظر عيدَها وعيدَ الناس ؛ وكان في الشرفات المقابلة رجال ونساء ، وبنون وبنات ؛ وهتفت : يا أخي ! الله لك وَلي ...!

* * *

بَلَى ، لم تكن سمية من بناتِ جيلِها ؛ ولكن في أعراقِها من دمِ أمِّها حواء ؛ وألقى الشيطانُ في قلبها أمنيَّة ...

وعزَّ عليها أن يكون غداً عيدُ الناس جميعاً ولا عيدَ لها ، فتمنَّت ، وكانت متواضعة في أمنيتها ... فلم تبلغ بها التي أن تكون مثلَ فلانة وفلانة ممن رأت وعرفتْ ، ولم تتسامَ إلى الأمل بأن تكون من ذوات الغنى والجاه والدلال ، ولم تنس الحقيقة التي تعيش فيها فتأمل أن تتغير حياتها من حال إلى حال ؛ ولكنها تمنَّت ... تمنَّت على الله الذي يهب للناس سعادة العمر أن يذيقها حلاوة هذه السعادة حيناً ثم ... ثم يسلبها ...

ورفعت يديها إلى الله داعية : يارب ! لا أريدها إلا مذاقاً أعرف به كيف يعيش السعداء من خلقك ... !

وأومضتْ في حواشي الأفق بارقةٌ من نور ، ثم خَبَتْ ...

وسمعت سميةُ طرقاً على الباب ، فأسرعتْ إليه لترى ...

« شفيق — ! »

وظل المدير الشاب واقفاً بالباب وعلى شفتيه ابتسامة مستحية وفي عينيه رجاء ، وهَمَس : أتأذنين ياسمية !

وأذنتْ له ، فدخل ودخل وراءه ساعيه يحمل إلى سمية هدية العيد ؛ وقال الفتى وقد اطمأنَّ به المجلس : سمية ، لعل زيارتي لا تسوءك يا آنسة ! لقد طالما راودتني نفسي فنهيتها ، ثم ها أنذا وتضرَّجتْ وجنتاها من حياء ثم أطرقتْ ، واستطرد شفيق : ولعلي إذ اخترتُ هذه الليلة لأزورك هنا ، أن يكون رجائي مقبولاً لديك ... أنظري إليَّ ... ولا يَضِقْ صدرُك بي يا آنسة ؛ إن عليَّ لك حقاً ، ولعلني أستطيع أن أسارحك في يوم قريب ؛ أما اليوم ...

وخفق قلب سمية وترادفتْ أنفاسُها ؛ وأحس الفتى خجلَها فلم يُثقل ، ونهأ للنهوض ، وتواعدا على اللقاء !

وتمتمت الفتاة شاكرة وفي عينيها دموع التأثر !

* * *

وخَلَت سمية إلى نفسها تفكر ... وخرج الفتى يفكر ...

أما هي فتبدَّلتْ نفسها منذ الساعة واستغرقها حُلم عميق ، فراحت تَمرض ماضيها وحاضرها وما تأمل أن يكون في غد ، وذاقتْ أولَ ما ذاقت من طعم السعادة معنى القلق ... !

وأما هو فقد خَفَّتْ نفسُه وحلَّقتْ في سماواتها وأحس شعور الراحة والرِّضا والاطمئنان ، فمضى يدبِّر أمره ، أطيبَ ما يكون نفساً بما فعل وبما يريد أن يفعل من أجل الفتاة التي رفعه أبوها وهيَّأ له سبيل الغنى والجاه والرياسة ، فإنه ليحس بأن له عليه ديناً ثقيلاً يقتضيه الوفاء لابنته !

واسترسلت الفتاة في أحلامها ... !

لقد شمرتْ منذ زارها شفيق وأهدى إليها هديتَه شموراً لم يكن لها به عهد ، فراحت تذكر ماضيها منذ رأته أول مرة ، ثم كيف كانت تراه بعد ؛ ومضت تعلِّل وتفسِّر وتستنبط وتستشفُّ حجاب الغد . هذه الابتسامة التي كان يلقاها بها كل صباح ، وتلك النظرة التي يودِّعها بها كل مساء ، وذلك الإحسان في المعاملة ، وهذا السخاء في المكافأة ، وهذه الهدية في ليلة العيد ... إنها آيات بينات ، وإنها لتزعم لنفسها أنها تعرف دلائلها ؛ بل إنها لتحاول الليلةَ أن تقنع نفسها أن ذلك الشعور الذي تشعره منذ قريب ، ليس جديداً عليها ، ولكنه سر يستعلن ، وضمير يتكشَّف ، وحبٌّ كان يستره الحياء فانكشف عنه حجابه ؛ بلى ، إنها لتحبه حباً صريحاً رسخت جذوره على الأيام في أعماق قلبها إلى إبَّانه ! هكذا قالت لنفسها قبل أن تأوي إلى فراشها لتتم في منامها الحلمَ اللذيذ الذي بدأته في يقظتِها ... !

... وقال شفيق لنفسه وهو في طريقه إلى داره : حَسَن ! لقد فعلتُ اليوم شيئاً ولكن عليَّ أشياء ؛ إن روح أبيها لتتمثَّل لي لتذكِّرني بواجبي أن أكون لها كما كان أبوها لي . زهرة غضة

لفحتْها أعاصيرُ الحياة الهوج فاقتلعتْها من منبتها إلى حيث ألقتها داميةً على الشوك فلم تَشْكُ حظَّها ولم تتسخَّط ، ما أحراها وأحرى بي أن أذيقها طعمَ السعادة التي حُرمتها ، وأن يكون لها عيدٌ مثل عيد الناس ! . . . هؤلاء الفتياتُ اللاتي يَغدُون ويَرُحن مع أزواجهن أو آبائهن يحملن هدايا العيد ويرفلن في مطارف الشباب وأبراد السعادة ، لَسْن أولى بما يتمتعن من سمية . . . ! دَيْنٌ طالما همتُ بالوفاء به ، ثم نهنهت نفسي حَذَرَ أن أجرح كبرياءها إن مددت إليها بالإحسان يداً ؛ ولكنه دين الحي للميت، لا حِلَّ منه ولا براءة ، وقد استأذنتُها فأذِنتْ . . .

* * *

وراح شفيق لموعده صبيحة يوم العيد ؛ وخرجا معاً يرودان مغاني الشباب ومجالي الأنس والمسرة ذراعاً إلى ذراع ، وفي كل قلبٍ حديثُه ونجواه . . .

عاطفتان من أسمى ما غَرَس الله في قلوب البشر ؛ أما قلبٌ فيخفق بالحب وسعادة الأمل ؛ وأما قلبٌ آخر فتغمره سعادة الرضا وتملؤه عاطفةٌ أسمَى وأنبل ؛ وإن في الحياة لَما هو أسمى من الحب وأنبل . . .

وشعر كلاهما أن الله يظلهما بجناحي رحمته حين تحققت لكل منهما أمنيته . . .

ومضت الأيام بهما وبه سعيدين لا يكاد يشغلهما عن أمرهما شيء ؛ والشباب يجدِّد لسمية كل يوم مُناها ويوقظ أحلامها وهي نائمة ؛ ثم استيقظت فجأة . . .

وغدا عليها شفيق ذات صباح ينبئها . . .

— كانت سمية قد ذاقت في أيام قلائل من ألوان السعادة ما لم تكن تتوقع أن يتهيأ لها في عمر مديد ، ونالت — بمعونة صديقها — حظوة ورياسة في العمل الذي تتولاه لا تتسنَّى لمثلها بعد سنين من المثابرة والدأب ، وزاد أجرُها زيادة مرموقة تهيئُ لمثلها العيش الرغد في أمان وثقة بالمستقبل ؛ ولكن الغد السعيد الذي كان يتخايل لها في أحلامها ويقظتها ، وتتنوَّره على البعد قريباً قريباً دون مدِّ ذراع — كان يشغلها عن الشعور بما هي فيه؛ فلم تكن مَن كانت ، فتاة تعيش ليومها بلا ماض تأسَى عليه ولا أمل تتشوف إليه ؛ وهل يعيش العاشق إلا في أحد يَوْمَيه: أمسِه وغدِه ؟ — ولكن هذا الغد الذي كانت تتوهم أنها تنظر إليه — حين تنظر — من وراء ستر رقيق ، لم يكن إلا صورة في إطار ليس وراءه إلا الحائط الصلب، على حين كانت تظن أنها بالغة إليه بين صبح ومساء ؛ ومدت يدها تهتك الستر لترى ، فإذا الإطار الذي يمسك الصورة الخادعة يردُّها إلى حقيقة دنياها فيوقظها من أحلامها . . .

— وقال لها شفيق : أنت مدعوة غداً يا صديقتي إلى حفل زفافي . . . !

وفغرت الفتاة فاها مدهوشة وهتفت : « حفل زفافك ! »

إذن فهو لم يكن يحبها ، ففيم كانت هذه العناية بها ؟ . . .

وعرفت بعد لأْي، فسكتت ؛ ثم خلت إلى نفسها فأرسلتْ عينيها أسفاً وندامة !

نعم ، إنها لم تخسر شيئاً ، ولكنها فقدت الأملَ الذي عاشت له أياماً من حياتها كانت كفيلة بأن تنشئها خلقاً آخر ؛ ولم يخدعها صديقها أو يزوِّر لها الحقيقة ، ولكنها هي خدعتْ نفسَها فباءت بالخسران والحسرة !

قلبان كانا يخفقان لمعنيين متباعدَين لم يتكاشفا معنًى لمعنًى ، ألقى الشيطان بينهما أمنية فرَّقتْ بينهما على حين كان يُرْجى بقاء الوداد ؛ ما ذنبُها ؟ وما ذنبُه ؟ ذلك حكم القدر !

* * *

وعادت سمية وحيدة إلى مثواها ، كعادتها يوم كانت ، ولكنها اليوم فتاةٌ غير من كانت !

لقد نالتْ كثيراً مما كانت تتمنى ، وحظيت من حظ الحياة بما لم تكن تأمل ، ولكن . . .

وذكرت موقفها ذات ليلة ، يوم رفعت يديها إلى الله داعية : « يا رب ! لا أريدها إلا مذاقاً أعرف به كيف يعيش السعداء من خَلقك . . . ! »

هكذا كانت دعْوتُها ، فهل كان شيء غير ما أرادت ؟

لقد استجاب الله دعاءها ، فأذاقها من ألوان السعادة ما لم تكن تتوقع ، وزادها على ما أرادت ؛ ولكنها لم تكسب شيئاً . . .

لقد باءت الثانية بالخسيس ، يوم باءت سعادة الرضا بسعادة الأمل . . . !

محمد سعيد العريان

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)